من صوت القطيع إلى صمت المترو

رحلة عينٍ أبصرت... وروحٍ اتّسعت

قال ابن حسن:

كنتُ في قريتي الصغيرة الوادعة، يحتضنها الجبل حيث الهدوء والسكينة، نعرف بعضنا بعضاً لا أفراداً فحسب، بل سياراتٍ ومواشي؛ فبمجرد ما نسمع صوتاً نتعرف على صاحب السيارة دون أن نراه من طريقة السير أو من أصوات السيارة، ولو رأينا شاةً أو جملاً عرفنا أنها لفلان، وإن لم تكن له فلأحد أبنائه.

ووصلت الكهرباء متقطعة ، فأنيرت الليالي بغير نور النار والقمر وساد بين الشباب خاصة صفة السهر، وكثرت الألعاب التي أشغلتهم عن المهام اليومية ، ولك يرتدعوا رغم كثرة اللوم والعتاب، والمصلح الله.

ثم أصيبت عيني اليمنى بعلة لم يجدِ فيها قطرات الأعشاب ولا الكحل ولا الكي على مؤخرة رأسي ،ولم تفد فيها قطرات وصفها لي طبيب مستوصف القرية المجاورة ، وبدأت عيني اليسرى تكل عن النظر أيضاً ، فاضطررت أن أذهب إلى العاصمة الرياض بعد إلحاح ابني علي كل مرة يزورني فيها، وأنا أتردد كثيرا مثل فعلي في أمور كثيرة ، وكم أضاع علي التردد فرصاً وأتحجج بخوفي على مواشي لا أثق بمن يرعاها غيري ودواجن يجتمعن إذا سمعن صوتي، ومزرعة صغيرة تحتاج عناية ولكني حين اضطررت، طلبت من ثقة قريب أن يرعاها في غيابي وأكدت عليه وحرصت ما استطعت حتى ملّ مني أو كاد.

ثم انطلقت بعد صلاة الفجر ولم أخبر ابني حتى لا أشق عليه ،خاصة وأنه مرابط في عمله لا يستطيع أخذ إجازة، وركبت سيارة مسعود وهو ابن عمٍ لي تسير سيارته سيراً وئيداً تحسبها ستقف بعد كل منعطف أو قبل كل حفرة، وابن عمي أفنى عمره سائقاً، ولكن عشي بصره وسقط حاجباه، غير أنه لا زال مصراً أنه في شرخ الشباب وأن السياقة مهنته وحرفته ومصدر رزقه.

توقفنا في الطريق لملء الوقود واشترى لنا شاياً في كاسات ورقية وهي مما لم أعهده وكرهت طعم الورق في الشاي، ولكن لا حيلة لمضطر وإلا غلبني صداع الشاي وهو من أسوأ أنواع الصداع لمن جربه، فتجرعته على مضض، ثم مضينا في طريقنا، تتجاوزنا السيارات تشعر كأنها طلقة، لا أدري لسرعتها أم لبطء رفيقنا.

ولمع أمامنا برق أو ما حسبته برقا، فقالوا هذه أداة مراقبة السرعة وسميت "ساهر" كونها لا تنام في ليل ولا نهار، بل ترصد من تجاوز الحد، وقالوا إنها حدت من الحوادث المميتة والفضل للرحمن.

وصلنا حدود الرياض، فقال رفيقنا: هذا فراق بيني وبينك، وهذا حد خبرتي في السياقة، سأوقفك عند محطة وقود ومنها اكتر سيارة إلى وجهتك، والسيارات كثيرة فقط أشر لها تتوقف لك، وسأعود لك بعد غدٍ بعد صلاة العصر عند هذه المحطة نفسها إن شاء الرحمن، وأشار بيده مودعا ومضى.

بقيت حائراً هنيهة ثم اتجهت إلى دكان على ناصية الشارع، فوجدت رجلاً يبدو أعجمياً، وحين تحدث تيقنت أنه أعجمي، قلت: أريد سيارة تقلني إلى منزل ابني ، لم يفهمني حتى أشرت بيدي وعيني، فقال: بابا يبغى تاكسي.
قلت في نفسي: لست لك بأب، ونعم أريد سيارة وحسب.

خرج معي مشكوراً ووقفنا قليلاً وأنا أشير للسيارات ولا أحد يقف لي، نظر لي مستغرباً وقال: بابا صبر، لازم تاكسي بس، لم أعره اهتماماً، حتى توقف سائق سيارة خضراء عندما أشار له، فتح زجاج نافذته ويبدو أنه من نفس جنسيته، إذ كانا يرطنان بلسان لا أفهمه ثم قال لي: اطلع بابا.

ركبت السيارة، وطلب مني تربيط نفسي بحزام يقال له حزام السلامة، والسلامة من الله، سميت وكبرت وقلت له مكان ابني، نظر بعيداً وقال: بابا هذا مكان بعيد، إنتَ أحسن خذ مترو وروح قريب بعدين تاكسي.

ترددت قليلاً ثم قلت له: ما هذا المتر؟
قال بحماس: اسمه مترو ،وهو سريع نظيف زي طيارة بس أرض ، وكمان رخيص.
وحين جاء ذكر الدراهم زانت الفكرة في عقلي، فقلت له: خذني إليه لأرى.
قال: يلا ،مترو بابا.

أخذني إلى مكان واسع كأنه ساحة، ولكن لا ترى فيه جمالاً ولا خيلاً ولا حتى سيارات كثيرة، بل ترى أناساً يدخلون ويخرجون كأنهم في سباق لا ينتهي، وكلٌ منهم يمسك بيده شيئاً يحدق فيه.

دخلت، فإذا بالمكان بارد كأنه في جوف جبل، وأصوات غريبة تعلو وتهبط، اقترب مني شاب يرتدي سروالا اسود يلتصق بجسده وقميصاً فاتح اللون ويعتمر قبعة تلمع، قال : مرحبا يا عم كيف أخدمك؟ قلت أريد الذهاب لبيت ابني في مكان كذا، قال تعال، وأمسك بيدي بلطف

حتى وقفنا عند آلة عجيبة... لا بائع فيها، قال نشتري تذكرة من هنا
قلت: وما التذكرة؟
قال: إذن للركوب.

بدأ يضغط، وأدخل نقوداً، فإذا بالآلة تبتلعها دون حياء! فقلت في نفسي: لو كانت عندنا لظنناها لصاً!

ثم أخرجت بطاقة صغيرة.
قلت: هذه هي؟
قال: نعم.

ومضى معي ومررها على آلة، فانفتحت البوابة.
فقلت: حتى الأبواب هنا لا تفتح إلا بإذن!

نزلنا سلالم تتحرك... كدت أسقط، فقلت: حتى السلم لا ينتظر أحداً!

وصلنا القطار... وليس ثمَّ دخان، ولا صوت، ولا سائق.
قلت: من يقوده؟
قال: يقود نفسه.

فقلت: إذا كانت الدواب عندنا تعرف طريقها، فهؤلاء جعلوا الحديد يعرف طريقه أيضاً!

ركبت... ووقفت حائراً...
فإذا بثلاثة شباب قام أحدهم وقال: تفضل يا عم.

جلست...
قالوا: أول مرة؟
قلت: نعم... وكدت أسقط من السلم قبله!

فضحكوا دون استهزاء..

سألوني عن وجهتي، وشرحوا لي الطريق، وكتبوا لي الاسم، وقالوا: إذا ضعت اسأل.

وبعد بضع توقفات قال أحدهم: جهز نفسك... المحطة الجاية لك.

وقفوا معي... وكأنهم يودعون قريباً.

نزلت...

وقفت أمام السلم المتحرك، ترددت... ثم صعدت، وقلت: الحمد لله الذي سلّم.

خرجت إلى الشارع... فإذا بالدنيا غير الدنيا.

استوقفت سيارة، وأعطيت السائق الورقة.

وصلت بيت ابني...

طرقت الباب...

فتح... وقال: أبي؟

واحتضنني وقبل رأسي ويدي...لِمَ لَمْ تخبرني أنك قادم؟

قلت : لم أود أن أكلف عليك، وأعلم أنك مشغول ومرابط ، وعمك مسعود كان قادماً للرياض ، فاغتنمت الفرصة.

هلا والله زارتنا البركة، ونور البيت بوجودك

دخلت...

هواء بارد يخرج من الجدار!
قلت: من أين؟
قال: مكيف

قلت : وأين المكيف؟

قال : مخفى في الجدار

ونحن نسير كانت الأنوار تضاء لوحدها ...حتى راودتني ظنون أن الجن تشعلها، فقالوا انها تحس بالحركة فتضاء،
وماء يصب دون ان تلمس شيئا كأن له عينا ترى اليد المقتربة

جاء أحفادي مسرعين فعانقوني وقبلوا رأسي ويدي...

شعرت في نظرات أصغرهم أنه يحسبني خارجاً من متحف...

قالوا: احكِ لنا.

قال أبوهم: دعوه يرتاح ويحكي لكم لاحقاً

فقلت : سعادتي أن أحكي لهم، والحكايات ما فيها تعب

تناولت القهوة والتمر وحكيت لهم:

عندنا... إذا جاء المطر، شممناه قبل أن نراه...وعرفنا علاماته قبل أن ينزل
وإذا نزل... خرجنا نستقبله كأنه ضيف عزيز...نغطي ما نخشى عليه البلل ، ونفتح المصارف المسدودة ومجاري الزرع المغلقة حتى يتوزع الماء في كل المزرعة

وإذا ضاعت شاة... بحثنا عنها كأننا نبحث عن أحدنا...

والليل... فيه نجوم تحدثك...وشهب تهوي وكلاب تعوي...

سأل الصغير :هل رأيت وحشاً أو ذئبا؟

كم طاردت الوحوش وقتلت الذئاب المفترسة، ورحت استعرض بطولاتي، ولا أدري ما اختلط بخيالي وما قد وقع صدقاً لي.

وفي صباح اليوم التالي، قال لي ابني

هيا نذهب إلى المستشفى نطمئن على عينك.

ذهبنا... فإذا بالمستشفى كبير ونظيف، كأنه مدينة داخل مدينة، لا ترى فيه فوضى ولا صراخاً، بل نظام عجيب.

دخلنا، فاستقبلتنا ممرضة بابتسامة، وقالت:

تفضل يا عم.

تعجبت... لم تقل "بابا!"

أجلستني برفق، وأحضرت كرسياً متحركاً، فقلت: أمشي على قدمي.

قالت: نعلم... لكن هذا أريح لك.

دفعتني برفق، كأنها تخاف أن تزعجني، فقلت في نفسي: ما أجمل اللطف.

دخلنا على طبيب شاب، قام من مكانه، وسلّم، وقال:

أهلًا وسهلًا يا عم، نورتنا.

قلت: الله ينور عليك.

جلس يفحص عيني، يسلط نوراً، ويسأل، ثم قال مازحاً:

واضح إنك شايف الدنيا... بس تحتاج نظارة تخليها أوضح!

ضحكت... وقلت: إن زادت وضوحاً أخاف أرى ما لا أريد!

فضحك، وقال: لا تخاف... بنخليها على قدر الحاجة.

ثم قال لابني: عنده مشكلة بسيطة في العين... ونحتاج نسوي عملية خفيفة.

قلت: عملية؟!

قال: عملية بسيطة ... تدخل وتخرج في نفس اليوم بإذن الله.

ثم شرح لي بهدوء، كأنه يحدث صديقاً لا مريضاً، وأعاد الكلام حتى فهمت، ولم يستعجل.

جاءت ممرضة أخرى، وقالت: عندنا برنامج لرعاية كبار السن، نرتب له كل شيء.

وأعطوني موعداً بعد شهر.

خرجت...

وأنا أقول:

ليست المدينة كما ظننت...

وفي اليوم التالي عدت إلى المحطة ليلقاني رفيقي حسب الموعد المضروب

وفي الطريق...

لم تكن الرحلة كالأولى...

كنت أنظر... لا بدهشة فقط... بل بفهم...

وصلت قريتي...اجتمعت الغنم حولي...

كأنها تعاتبني...

وسمعت أصواتاً أعرفها قبل أن أراها...جاءت إليّ كأنها تعانقني، مسحت عليها بيدي ووضعت لها علفها وماءها، وشكرت من رعاها، وعدت إلى مكاني مبتسماً ووضعت رأسي على مخدتي ونمت.

وبعد مضي شهر ..حان الموعد، وجاء ابني بعد أن استأذن من عمله وأخذني بسيارته وشعرت بالفرق في المسير بينها وبين سيارة مسعود، ولعلم ابني أني أكره كاسات الورق ، مررنا بمحل يبيع شاياً في كاسات زجاجية وأخذنا منه كوبين لنا وكوب عصير لحفيدي الصغير الذي أصر على القدوم مع والده، وما فتئ يسأل عن كل شيء حتى ملّ منه أبوه فنهره ، فتوليت قص الحكايات عليه حتى غلبه النوم فنام جالسا.

وصلنا البيت واسترحت تلك الليلة ، وفي الصباح ذهبنا إلى المستشفى، دخلت الغرفة الباردة وطلبوا مني خلع ملابسي، ترددت فلم أتعود مثل ذلك خارج بيتي، لكني أطعت وساعدني ابني

ووضعوني على طاولة ودفعوني نحو غرفة أبرد وأكثر إضاءة وجاء الطبيب الشاب وقد ارتدى كمامة على وجهه ولكني عرفته من عينيه، وصدق من قال : *العين نافذة الروح*

نقلوني إلى طاولة أخرى، ووضعوا في عيني قطرة وشعرت بوخز خفيف ، وبقيت مدة أسمع حديثهم وأري شبه ضوء حولي، ولم يمر كثير وقت حتى قال لي: الحمدلله على السلامة يا عم

لم أصدق فسألته: انتهينا؟

قال : نعم ، وأنت بعد كم يوم سترى مثل الصقر إن شاء الله..

حمدت الله، وأعادوني لغرفتي وأشعر بغطاء على عيني أتحسسه بيدي ولا أرى بها، وبالكاد أرى بعيني الأخرى، جاء ابني وحمد الله لي بالسلامة .

بقيت بضع ساعات حتى جاء الطبيب وقال الحمدلله الأمور تمام ويمكنك الخروج، وأعطاني تعليمات وأدوية وخرجت ومكثت عند ابني بضعة أيام، وغلبني الشوق لأغنامي ومزرعتي ولضوء الشمس ونسمة الهواء ، فأصررت على العودة رغم إلحاح ابني للبقاء عنده فترة أطول.

ولكني عدت للمراجعة الأولى ومن المستشفى وبعد أن أزال الطبيب الغطاء ونصحني بلبس نظارة شمسية إذا خرجت في الضوء، أقسمت على ابني ألا أعود ، فأقلني إلى بيتي ومزرعتي، فشعرت أن روحي عادت إليّ وشعرت أني أتنفس هواء طبيعياً افتقدته منذ أيام شعرت أنها طويلة، بات عندي ابني وفي الصباح أعد القهوة والفطور، فتحت عيني فإذا بي أرى بشكل أوضح وما ظننت لونه كابياً ، إنما كانت غشاوة عيني، ومرت أيام وتحسن نظري حتى صرت أرى النمل على الجدار والأرض والحمدلله وصرت أبصر القادم وأعرف من جاء

وشعرت بنعمة الله علي في بصري وداخل نفسي شعرت بنوع من الندم أني ترددت كثيرا قبل العملية، وقلت كم أضاع التردد على الإنسان من فرص!

لكني استعذت من الشيطان، وقلت كل شيء له وقت مكتوب،

جلستُ أمام بيتي...
أنظر إلى أرضي... وإلى أغنامي

ثم رفعت بصري إلى الأفق...

لم تعد قريتي كما كانت في عيني...
ولم تعد المدينة كما ظننتها أول مرة...

هناك... رأيت عالماً يجري بسرعة،
وفيه قلوب تمشي بهدوء...

وهنا... عشت بساطةً ظننتها كل الحياة،
فاكتشفت أنها جزء منها فقط...

أغمضت عيني لحظة... ثم فتحتهما...

فرأيت...
لا بعيني التي عولجت فحسب،
بل بعينٍ أخرى... لم أكن أراها من قبل...

وابتسمت...

وقلت:

ما بين قريةٍ علّمتني القرب...
ومدينةٍ علّمتني السَّعة...
لم أعد كما كنت...

ثم سكتُّ قليلاً...

وقلت:

لم أضِع في الطريق...بل وجدتُني... واتّسعت.